تفسير القرآن بالقرآن

إنّ القرآن الكريم كلام الله المعجز المنزل وحياً على النبي محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) المكتوب بالمصاحف ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس. فهو بمجموعه كتاب واحد، ومن مصدر واحد، وبالتالي فهو يمثل رؤية واحدة للقضايا لا اختلاف فيها، كما قال تعالى:- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢)، ولما كان القرآن الكريم قد نزل نجوماً، أي بنحو متفرق ومتقطع، كان لابد من اعتماد كل آياته مهما تباعدت وتفرقت من أجل تكوين تفسير صحيح ورؤية واحدة غير مختلفة حول القضايا التي يتناولها عبر آيات متعددة ومتفرقة، لأن تلك الآيات ينظر بعضها للبعض الآخر، وهذا هو ما يسمى بـ(تفسير القرآن بالقرآن).

ويمكن أن يقال بأن القرآن الكريم يدعو إلى هذا المنهج، فلاحظ قوله تعالى:- ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ (البقرة:٨٥) حيث أن هذه الآية واضحة في عدم السماح بتبعيض القرآن الكريم وفهم معانيه على أساس النظرة التجزيئية لآياته وسوره.

ما يفهم من تفسير القرآن بالقرآن ، واضح ولأجل هذا الوضوح لم يتعرض المفسرون لتعريفه ، بل اشاروا اليه بأنه : تفسير للقرآن بواسطة نفس القرآن ، فإذا رأينا إجمالاً في آية ، يوضح ذلك الإجمال بواسطة آية أخرى ، إذ القرآن يشهد بعضه على بعض ويفسر بعضه بعضاً .

وعرّف بعض هذا النوع من التفسير بأنه : مقابلة الآية بالآية وجعلها شاهداً لبعضها على الآخر ؛ ليستدل على هذه بهذه ؛ لمعرفة مراد الله تعالى من قرآنه الكريم.

ولكن هذا التعريف ليس شاملاً لهذا المنهج ؛ إذ لتفسير القرآن بالقرآن أنواع كثيرة لا تنحصر في النوع الذي أشير اليه في التعريف ، أي : الشاهدية والتأييد ، فالأصح أن نقول في تعريفه : تفسير آية او آيات بواسطة آية أو آياتٍ أخرى ؛ لوجود علاقة بينهما . فالباء في جملة تفسير القرآن بالقرآن ، تكون للاستعانة ، كما هو الظاهر منها ، أي : تفسير القرآن بمساعدة نفس القرآن ، وايضاً لابد من وجود علاقة بين الآيات .

وإلا لا يمكن تفسير آية بأية أخرى اجنبية عن الأولى ، والعلاقات بين الآيات كثيرة لا تنحصر في علاقة التأكيد والموافقة في المؤدى.

وقد حاول جملة من أعلام المفسّرين من الفريقين كالطبري والرازي والطبرسي والطوسي والطباطبائي أن ينهجوا طريقاً آخر غير ما سلكه الآخرون. حيث اعتمدوا القرآن نفسه لتفسير القرآن؛ وذلك لما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً ويصدّق بعضه بعضاً وينطق بعضه ببعض.

إنّ القرآن الكريم كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنّه معجزة النبي الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد﴾ (فصّلت: ٤١ ـ ٤٢) والباطل نقيض الحقّ كما يقول الراغب في (المفردات)، قال الرازي في ذيل هذه الآية : وفيه وجوه:

- لا تكذّبه الكتب المتقدّمة كالتوراة والإنجيل والزبور، ولا يجيء كتاب من بعده يكذّبه.

- ما حكم القرآن بكونه حقّاً لا يصير باطلاً، وما حكم بكونه باطلاً لا يصير حقّاً.

- معناه أنّه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، والدليل عليه قوله﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) فعلى هذا الباطلُ هو الزيادة والنقصان.

- يحتمل أن يكون المراد أنّه لا يوجد في المستقبل كتاب يمكن جعله معارضاً له ولم يوجد فيما تقدّم كتاب يصلح جعله معارضاً له).

وقال الزمخشري: (هذا مثل كأنّ الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتّى يصل إليه ويتعلّق به).

أمّا قوله تعالى في ذيل الآية: (تنزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيد) فهو الدليل على عدم وصول الباطل ـ بأيّ طريقٍ ـ إلى القرآن. فالباطل قد يسري إلى الكلام الذي يصدر من الأفراد ذوي العلم المحدود والقدرات النسبية، أمّا الذي يتّصف بالعلم المطلق والحكمة المطلقة ويجمع كلّ الصفات الكمالية التي تجعله أهلاً للحمد، فلا يطرأ على كلامه البطلان، ولا ينسخ أو ينقض أو تمتدّ إليه يد التحريف، ولا يتناقض كلامه مع الكتب السماوية والحقائق السابقة، ولا يعارض بالمكتشفات العلمية الراهنة أو تلك التي يكشفها المستقبل. والحاصل فإنّ الآية واضحة الدلالة على نفي التحريف عن القرآن، سواء من جهة الزيادة أو النقصان، وهذا ما اتّفقت عليه كلمة المحقّقين من علماء المسلمين. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (إنّ القرآن ليصدّق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض).

وقال عليّ أمير المؤمنين (عليه السلام): (وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيى لسانه، وبيت لا تُهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه... كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله).

فإنّه لا يوجد بين مضامين القرآن الكريم أيّ اختلاف أصلاً. لقوله تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (النساء : ٨٢). وهذا قياس استثنائي مؤدّاه: لو كان القرآن من عند غير الله لوُجد فيه اختلاف كثير، وحيث لا يوجد فيه ذلك، فهو من عند الله سبحانه. والحاصل المستفاد من هذه الآية المباركة أمور:

١. إنّ القرآن ممّا يناله الفهم العادي. فلو لم يكن كذلك لما أمر سبحانه وتعالى الناس بالتدبّر والتأمّل فيه لمعرفة الحقّ، وإنّ التأمّل فيه يهدي صاحبه إلى كون القرآن من عند الله تعالى العليم بمصالح عباده الذي يهديهم بما يصلح أمرهم .

٢. إنّ القرآن الكريم كامل مكمّل من جميع الجهات، لا يقبل الاختلاف ولا التغيير ولا التحوّل والنسخ ولا الإبطال ولا التهذيب ولا التكميل، فلا حاكم عليه أبداً؛ لأنّ ذلك كلّه من شؤون الاختلاف. فإذا كان منفيّاً عنه بالكلّية، فلا يقبل القرآن أيّاً منها، ولازم ذلك أنّ الشريعة الإسلامية مستمرّة إلى يوم القيامة.

٣. إنّ هذا الكتاب لمّا كان كاملاً من كلّ جهة، لابدّ أن يكون نازلاً من عند الكامل المستجمع لجميع صفات الكمال الذي لا يُتصوّر النقص فيه أبداً، وليس هو إلاّ الله سبحانه، لأنّ غيره تعالى سواء كان إنساناً أو ملكاً أو أيّ مخلوق آخر، قرين النقص والاختلاف، فلا يمكن أن يصدر منه ما ليس فيه اختلاف، وإنّ الكمال مهما بلغ من الشأن في المخلوق فهو محدود، والقرآن بعجائبه وغرائبه غير محدود، فهو المعجزة الخالدة، لذا عبّر عنه سيّد المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه).

مضافاً إلى ما ثبت من أنّ القرآن كتاب لا يأتيه الباطل وأنّه لم يقع فيه الاختلاف، هناك خصوصية ثالثة وهي أنّ آياته متشابهة، والتشابه هو توافق أشياء مختلفة واتّحادها في بعض الأوصاف والكيفيات، وقد وصف الله سبحانه جميع القرآن بهذا الوصف حيث قال: ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٣) والمراد كون آيات الكتاب ذات نسق واحد من حيث جزالة النظم، وإتقان الأسلوب، وبيان الحقائق والحكم، والهداية إلى صريح الحقّ، كما تدلّ عليه القيود المأخوذة في الآية. وهذا غير التشابه الذي في المتشابه المقابل للمحكم، فإنّه صفة بعض آيات الكتاب وهذا صفة للجميع.

وقوله: (مثاني) جمع مثنية بمعنى المعطوف؛ لانعطاف بعض آياته على بعض ورجوعه إليه بتبيين بعضها وتفسير بعضها لبعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضاً ويناقضه.

قال الرازي في ذيل هذه الآية: (إنّ كلّ ما فيه من الآيات والبيانات فإنّه يقوّي بعضها بعضاً ويؤكّد بعضها بعضاً).

وكتاب له مثل هذه الخصوصيات لا يمكن إلاّ أن يكون مفسِّراً لنفسه ومبيّناً لمعارفه دون حاجة إلى الغير، إذ لو احتاج إلى الغير للزم أن لا يكون التدبّر فيه موصلاً إلى أنّ هذا الكتاب منه تعالى. وهذا خلاف ما دلّ عليه قوله: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ...﴾، ولزم أن لا يكون القرآن أحسن الحديث يهدي به الله من يشاء من عباده إلاّ بمعونة الغير، والمفروض أنّه هو الدليل على صحّة نبوّة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).

إنّ القرآن وصف نفسه بأنّه نور وأنّه هدىً وأنّه تبيان، فكيف يتصوّر كتاب له مثل هذه الأوصاف مفتقراً إلى هادٍ غيره ومستنيراً بنور غيره ومبيَّناً بأمر غيره؟

قال الطباطبائي في تفسيره: (إنّ الطريق لفهم القرآن يمرّ من خلال منهجين:

أحدهما: أن نبحث بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك عن مسألة من المسائل التي تتعرّض لها الآية حتّى نقف على الحقّ في المسألة ثمّ نأتي بالآية ونحملها عليه. وهذه طريقة يرتضيها البحث النظري، غير أنّ القرآن لا يرتضيها.

ثانيهما: أن نفسّر القرآن بالقرآن ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبّر المندوب إليه في القرآن نفسه، ونشخّص المصاديق ونتعرّفها بالخواصّ التي تعطيها الآيات كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩). وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: ﴿ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَات مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (المائدة: ١٥) وكيف يكون القرآن هدى وتبياناً

وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو أشدّ الاحتياج ! وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) وأيّ جهاد أعظم من بذل الجهد في فهم كتابه ! وأيّ سبيل أهدى إليه من القرآن !

ثمّ إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي علّمه القرآن وجعله معلّماً لكتابه كما يقول تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤) ويقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤) و﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤) وعترته أهل بيته ـ الذين أقامهم النبي صلى الله عليه وآله هذا المقام ـ في الحديث المتّفق عليه بين الفريقين (إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض). وصدّقه الله تعالى في علمهم بالقرآن حيث قال عزّ من قائل: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣). وقال: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُون لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩) وقد كانت طريقتهم في التعليم والتفسير هذه الطريقة بعينها على ما وصل إلينا من أخبارهم في التفسير. هذا هو الطريق المستقيم والصراط السويّ الذي سلكه معلّمو القرآن وهداته صلوات الله عليهم).

نماذج تفسيرية من هذا المنهج:

فمن امثلة استخدام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لهذا النوع من التفسير أنّهم رووا أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) سُئل عن معنى الظلم في الآية الكريمة : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢) فأجاب (صلى الله عليه وآله وسلم) بالاستناد الى الآية : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان :١٣) فالمقصود من الظلم في الآية الأولى هو الشرك المذكور في الآية الثانية.

وإنّ عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) أُتي بامرأة وضعت لستّة أشهر فهمّ برجمها، فبلغ ذلك عليّاً فقال: ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه يسأله، فقال علي (عليه السلام): ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة : ٢٣٣) وقال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾ (الأحقاف: ١٥) فستّة أشهر حمله، وحولان تمام الرضاعة، لا حدّ عليها ولا رجم عليها. قال: فخلّى عنها.

وعن زُرقان (لعلّه محمّد بن عبد الله بن سفيان المعروف بزرقان الزيّات) صاحب ابن أبي داود قال: (رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتمّ ، فقلت له في ذلك، فقال: ورددتُ اليوم أنّي قد متُّ منذ عشرين سنة. قال: قلت له: ولِمَ ذاك؟ قال: لِما كان من أبي جعفر محمّد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين المعتصم. قال: قلتُ له: وكيف كان ذلك؟

قال: إنّ سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه، وقد أحضر محمّد بن علي، فسألنا عن القطع في أي موضع يجب أن يُقطع؟ قال: فقلتُ من: الكُرسوع (وهو طرف الزند الذي يلي الخنصر). قال: وما الحجّة في ذلك؟

قال: قلت: لأنّ اليد هي الأصابع والكف إلى الكرسوع؛ لقول الله تعالى في التيمّم: ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ (النساء: ٤٣) واتّفق معي على ذلك قوم.وقال آخرون: بل يجب القطع من

المِرفق. قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا: لأنّ الله لمّا قال: ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ (المائدة: ٦) في الغَسل، دلّ ذلك على أنّ حدّ اليد هو المِرفق.قال: فالتفت إلى محمّد بن علي، فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلّم القوم فيه. قال: دعني ممّا تكلّموا به، أيّ شيء عندك؟

قال: أعفني عن هذا. قال: أقسمت عليك بالله لمّا أخبرت بما عندك فيه. فقال: أمّا إذا أقسمت عليَّ بالله إنّي أقول إنّهم اخطأوا فيه السُنّة، فإنّ القطع يجب أن يكون من مَفصل أُصول الأصابع، فيُترك الكفّ. قال: وما الحجّة في ذلك؟

قال: قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين) فإذا قطعت يده من الكُرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ (الجنّ: ١٨) وما كان لله لم يُقطع. قال: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكفّ. قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنّيتُ أنّي لم أكُ حيّاً).

وعن زرارة ومحمّد بن مسلم أنّهما قالا: (قلنا لأبي جعفر الباقر (عليه السلام) : ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي؟ وكم هي؟

فقال: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ﴾ (النساء: ١٠١) فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر. قالا: قلنا له: إنّما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ولم يقل: افعلوا فكيف أوجب ذلك؟ فقال عليه السلام: أوليس قد قال الله عزّ وجلّ في الصفا والمروة: ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِـهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨) ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض لأنّ الله عزّ وجلّ ذكره في كتابه وصنعه نبيّه صلى الله عليه وآله، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي صلى الله عليه وآله وذكره في كتابه).

ويعد من أبرز رواد هذا المنهج المفسر الكبير العلامة الطباطبائي في تفسيره الرائع الميزان، حيث يمثل تفسيره نموذجاً رائعاً لتفسير القرآن بالقرآن، وقد حاول أن يستدل على هذا المنهج ويبين مشروعيته، فقال : ويعتقد العلامة الطباطبائي ان القران بيان لكل شيء فمن غير الممكن ان لا يكون مبينا لنفسه ويعتقد أيضا ان هذا المنهج هو الذي اتخذه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واهل البيت (عليهم السلام) في تفسير القران وقاموا بتعليمه ووصلنا عن طريق رواياتهم .

حاشا أن يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء:١٧٤) وكيف يكون القرآن هدى وبينة وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو أشد الاحتياج.

توضيح قاعدة تفسير القرآن بالقرآن:

ومن أجل توضيح الفكرة نحاول أن نأخذ بعض النماذج لثلاث من حالات تفسير القرآن بالقرآن:

الأولى: القرائن المتصلة

وهي أن نعمد لاكتشاف المعنى الكامل للآية إلى آية أخرى متصلة بها أو إلى جزء من نفس الآية، مثل قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (الشعراء:٢٢٤-٢٢٦) فقد اتصلت هذه الآيات العامة في دلالتها بآية أخرى لاحقة تقول: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الشعراء:٢٢٧)

فيستفاد حينئذٍ أن الحكم ليس بصورة كلية منطبق على كافة الشعراء، وإنما هناك قسم خاص من الشعراء لا يشملهم الكلام المذكور في الآية.

الثانية: القرائن المنفصلة

وهي أن نعمد لاكتشاف المعنى الكامل للآية إلى آيات أخرى منفصلة عنها، وفي موضع آخر من القرآن الكريم لكنها تتحدث عن نفس الموضوع والفكرة.

مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل ١٢٥) .

فهي مطلقة من حيث دعوتها للجدال بالتي هي أحسن، لكننا نلاحظ آية أخرى وفي سورة أخرى تلقي ضوءاً على هذه الآية وتقدّم تفصيلاً فيها فتقول: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وستكون النتيجة النهائية للآيتين أن منهج المنطق والبرهان والجدل بالتي هي أحسن هو المنهج المتعين مع طلاب الحقيقة، وليس مع الظالمين الذين لا ينفع معهم إلا منهج القوة والمواجهة.

ومثل ذلك حينما نقرأ قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (المعارج:٤٢) ، فإن النظر إليها بعيداً عن الآيات الأخرى التي تتحدث عن نمط التعامل مع الكافرين يجعلنا نفهم الموقف الإسلامي على خلاف واقعه، حيث يجب في ضوء المفهوم الأولي لهذه الآية ترك الكافرين يعبثون ويفسدون ويفعلوا ما شاءوا وعدم التعرض لهم بشيء بينما لا نجد الموقف الإسلامي يسمح بذلك، بل يدعو لمواجهة الضلال والانحراف ومقاتلة أعداء الله كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال :٣٩)، الأمر الذي يعني أن الآية يجب فهمها في ضوء باقي الآيات لتكوين رؤية واحدة متكاملة.

ومثل ذلك حين نقرأ قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (لبقرة:٧)، فإن الآية الأخرى من سورة النساء تكشف عن سبب هذا الختم فتقول: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء:١٥٥) ، وبذلك تندفع شبهة الظلم والإضلال ونسبة ذلك إلى الله تعالى، لأن الإنسان نفسه هو السبب وراء ذلك.

الثالثة: قرينة السياق

يُقصد بقرينة السياق، الجو المحيط بالآية فيما سبقها وما يلحقها من آيات مما يساعد على معرفة اتجاه الآية وطبيعة دلالتها.

ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة:١٣٨) ، فنحن نستطيع أن نكتشف المعنى المقصود بـ(الصبغة) من الجو الذي نزلت فيه الآية، والآيات التي سبقتها والتي تليها، حيث يقول عز من قائل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (البقرة:١٣٥-١٣٩)

فإن نزول هذه الآية(صبغة الله) في سياق الحديث عن التوحيد الخالص لله تعالى المتمثل في الإسلام، يكشف عن أن المقصود بـ(صبغة الله) هو الإسلام والعبودية المخلصة لله تعالى، وهذا هو ما يصطلح عليه بـ(السياق).

ومثل ذلك حينما نقرأ قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (البقرة:٢٠٨) ، فإن مطالعة الآيات التي سبقتها والسياق الذي جاءت فيه تلقي ضوءاً كافياً لمعرفة ما هو المقصود بـ(السلم) في هذه الآية، فلقد ابتدأت الآيات بالتالي: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (البقرة:٢٠٤-٢٠٧) ثم عقبت بعد هذا التقسيم للناس إلى قسمين بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨).

إن مجيء الآية في سياق الحديث عن تقسيم الناس إلى منافق يتظاهر بالقول الجميل ويضمر العداء للإسلام، وإلى مؤمن صادق الإيمان مجاهد في سبيل الله، يلقي الضوء على المعنى المقصود بـ(السلم) في الآية الأخيرة، حيث يعرف أن المراد من السلم هو الإسلام الصادق، والانخراط في صفوف الأمة المسلمة بإخلاص بدلاً من السعي في الأرض بالفساد، وإهلاك الحرث والنسل، وإضمار العداء والخصام للمسلمين، وليس المقصود بالسلم المعنى الذي يقابل الحرب بحيث تصبح الآية دالة على وجوب الدخول في السلم على كل المؤمنين وحرمة دخول الحرب.

منهج تفسير القرآن بالقرآن - بين الرفض والقبول -

لقد وقع منهج تفسير القرآن بالقرآن موقع الأخذ والرد والقبول والرفض بين مَن يقول به بقول مطلق، وبين من ينفيه بقول مطلق، وبين من يفصّل.

أولاً: تفسير بعض القرآن ممكن فقط

ان تفسير القرآن بالقرآن إن أريد به اننا قادرون على تفسير بعض آياته ببعضها الآخر ولسنا قادرين على تفسير كل مبهم أو مجمل أو متشابه في القرآن بآية من آياته الأخرى، فهو صحيح، وإن أريد به ان كل مبهم في القرآن أو مجمل أو متشابه فان بمقدور سائر البشر، إضافة إلى المعصومين الأربعة عشر، كشف إبهامه ورفع إجماله وحل عُقَد متشابهة، بالرجوع إلى القرآن الكريم فقط، من دون حاجة إلى الرجوع إلى الرسول صلى الله عليه واله وسلم وآله عليهم السلام، ولا إلى العرف واللغة، ولا إلى بعض القواعد العقلية ولا إلى بعض الحقائق العلمية ولا إلى بعض الروايات الصحيحة التاريخية، فليس بصحيح.

ثانياً: انه قد يفيد علماً أو ظناً أو احتمالاً أو وهماً

ان تفسير القرآن بالقرآن، إن أريد به الوصول إلى معانيه ومقاصده وغاياته ومبانيه كلها عبر التدبر في الآيات القرآنية وضمّ بعضها إلى بعض، بحيث يورثنا ذلك القطع، إثباتاً، وبحيث يكون ما توصّلنا إليه مصيباً للواقع حتماً، ثبوتاً، ومما لا يتسرب إليه (إلى تفسيرنا وفهمنا) الخطأ والاشتباه أبداً، فليس بصحيح. وبعبارة أخرى نقول:

أ- كوننا قادرين على تفسير القرآن بالقرآن صحيح في الجملة وليس صحيحاً بالجملة، أي انه صحيح بنحو القضية الجزئية وليس صحيحاً بنحو الإطلاق والعموم والشمول والكلية، أي انه صحيح ممكن وواقع في بعض المبهمات أو المجملات القرآنية وليس فيها بأكملها جميعاً.

ب- وإن تفسيرنا للقرآن بالقرآن، حيث انه فهم بشري أو اجتهاد إنساني، فهو قد يكون مصيباً وقد يكون مخطئاً فهذا من جهة، ومن جهة أخرى فانه قد يفيد علماً وقد يفيد ظناً معتبراً وقد لا يفيد إلا ظناً غير معتبر بل قد لا يفيد إلا احتمالاً أو وهماً، ولأن فهمنا وتفسيرنا للقرآن بالقرآن، هو كذلك، أي منقسم إلى الأقسام الأربعة، لذلك كان لا بد لنا من مرشد وهادٍ ودليل ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤) وقال: ﴿وما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (آل عمران:٧) وقال: ﴿وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ ﴾ (الحاقة:١٢) وقال: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾ (القيامة:١٦) و﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ﴾ (فاطر:٣٢)

والحاصل: اننا نحن البشر والمفسرون والأصوليون والفقهاء ننال بعض القرآن الكريم عبر استنطاق بعضه الآخر، ولا يمكننا ان ننال كل حقائقه وعلومه ومعارفه وغاياته ومقاصده وشرائعه بدراسته والتدبر فيه فقط، والمقصود بـ(كل حقائقه وعلومه...) هو ما صرح به تعالى بقوله: ﴿ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) و ﴿ وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل:٧٥) و ﴿الْأَسْماءَ كُلَّها ﴾ (البقرة:٣١) التي علمها آدم و ﴿ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمينَ ﴾ (النحل:٨٩) و﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ في إِمامٍ مُبينٍ ﴾ (يس:١٢) ، ثم ان نيلنا للبعض الذي ننال بالرجوع إليه قد يكون علماً مطابقاً وقد يكون جهلاً مركباً وقد يكون ظناً وقد يكون شكاً واحتمالاً وقد يكون وهماً.